الحروف الفرعية المستحسنة بين اللسان العربي والقراءات القرآنية

د . محمد خليفة محمد مفتاح الحجاجي ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة ليبيا المفتوحة

المقدمة :

الحمد لله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم ، وشـــرّف العربية بكتابـــه المقدّس ، وبعد

فعلماؤنا القدامى قد عملوا جهدهم في توثيق حـــروف العربية ، واعتمدوا في ذلك على ما لهجت به ألسنة العرب ، ووثّقته أشعارهم ، ثمّ جاءت القـــراءات القرآنية ، فكانت خير شاهدٍ وموثّقٍ لأصوات العربية ، ولذا كان موضوع بحثي يتكلّم عن هذه الحروف العربية التي ليست من الحروف التسعة والعشرين التي اتفق عليها، وتتبعت ذلك في كتب التراث عند الأقدمين وربطت ذلك بما ورد في القراءات القرآنية، وهذا دليل على فصاحتها ، ووصلت إلى نتائج أحسب أنها تفيد القارئ والباحث على الســـواء ، وقد قسّمت البحث على مبحثين ، تناولـــت في المبحث الأول: الأصوات الفرعية المستحسنة في كتب التراث ، وتوثيقها من خلال النصوص النثرية ، أو الشعر العربي، وفي المبحث الثاني: وجود الأصوات الفرعية في القراءات القرآنية كدليلٍ على فصاحة الحروف الفرعية، ثمّ ذيّلت البحث بخاتمة ضمّنتها أهم النتائج والتوصيات وقد اعتمدت على المنهج الوصفي في توثيق وتتبّع المعلومات من خلال جملة من المصادر الأساسية ككتاب سيبويه ، والخصائص لابن جنّي ، وشـــرح المفصل لابن يعيش ، وغيرهم ممن يوثق بعربيتهم لسانا ، ومذهباً ، وتوثيقاً ، وإن كان أصل بعضهم ليس بعربيّ ، وأسأل الله العلي القدير أن يوفقني فإليه ترجع عاقبة الأمور .

أهداف البحث:

- يهدف البحث إلى توضيح أن هذه الحروف الفرعية المستحسنة فصيحة بدليل وجودها في القراءات القرآنية التي تمثّل أعلى مراتب التوثيق .
- إثبات أنّ القراءات القرآنية سجلٌّ حافظ للهجات العرب الفصيحة .
- إثبات أنّ الحروف الفرعية تمثل ظاهرة لغوية منتشرة في شبه الجزيرة العربية والقراءات القرآنية جاءت تخفيفاً للأمة .
- إثبات أن هذه اللهجات لازالت موجودة يلهج بها في الدول العربية حتى الآن .

المبحث الأول ـ الأصوات الفرعية في كتب التراث:

يقول سيبويه - عالم العربية - (1) : (فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً : الهمزة ، والألف ، والهاء ، والعين ، والحاء ، والغين ، والخاء ، والكاف ، والقاف ، والضاد والجيم ، والشين ، والياء ، واللام ، والراء ، والنون ، والطاء ، والدال ، والتاء ، والصاد والزاي ، والسين ، والظاء ، والذال ، والثاء ، والفاء ، والباء ، والميم ، والواو) (2) . ثمّ ذكر إمام العربية الحروف الفروع فقال : (وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروعٌ ، وأصلها من التسعة والعشرين ، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قـــراءة القرآن والأشعار وهي :

النون الخفيفة ، والهمزة التي بين بين ، والألف التي تمال إمالة شديدة ، والشين التي كالجيم والصاد التي تكون كالزاي ، وألف التفخيم ، يعنى بلغة أهل الحجاز ، في قولهم : الصلاة والزكاة والحياة) (3) .

ثم إن سيبويه عالم العربية أشار- أيضاً- إلى حروف أُخرى لا تستحسن في قراءة القرآن ولافي الشعر العربي لست الآن بصددها (4) ، ولأنّ أصل كلّ هذه الحروف ، الحروف العربية المشهورة التي ينطق بها كلّ عربيّ ، فيصعب تمييزها والإشارة إليها ، فلا تعرف إلاّ بطريق المشافهة ، ولولا وجود القراءات القرآنية لاندثرت ولما وصلت إلينا ، ولم تصلنا إلاّ عن طريق الكتابة ، والكتابة العربية لا تمثّل اللهجات كما كان ينطقها أهلها ، ولذا فإنّ فضل القرآن والقراءات على العربية عظيم ، فقد حفظت لنا العديد من اللهجات التي كانت تُحكَى ، يقول الدكتور أحمد علم الدين الجندي :

لأن الكتابة جامدة هامـــدة أو محنّط ثابت) (5).

1 ـ النّـــــــون الخفيفة : هي حرفٌ من الحروف الصّحاح في العربية ، فمخرجها كما يقول سيبويه : (ومن حافّة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا مخرج النون) (6) .

ولأنه حرف صحيح له مخرج محدّد ، فقد ذكر بعض العلماء بأنّ المعنى المراد النّون الخفيّة ، وليس النون الخفيفة ؛ لأنّ النّون الخفيّة هي التي تخالط حروف الفم الأخرى فيتغيّر مخرجها من اللسان إلى الخيشوم يقول سيبويه : (وتكون النّون مع سائر حروف الفم حرفا خفيّاً مخرجه من الخياشيم) (7) ، وقد أشار الدكتور غانم قدوري إلى ذلك بقوله : (أن هذه الأصوات تنوع موقعي لأصوات العربية مثل قولك : مَن كان ، مَن فعل ، من سِحْرِهِمْ ، مَنْ جَاءَكَ ... إلخ من حروف الخفاء عندما تجاور النون الساكنة

أو التنوين)(8) ، وسنلاحظ ذلك عندما نتناولها عند القراء ، فهم وحدهم ستسمع عندهم ذلك الصّوت الخفيّ الذي يسمّى بالنون الخفيّة .

وأنّ هذا التنوّع الصوتي لا يؤدي إلى تغيّر المعنى ، وليس لها رمز كتابي مستقلّ عن الأصل ؛ ولذا سُمّيت هذه الحروف بالفروع المنبثقة عن الأصل وهو حرف (النون) ، وأشار سيبويه للنون الخفيّة عندما ذكر إخفاء النون الساكنة مع حرفي الخاء والعين على غير ما اشتهر عند عامة العرب بقوله : (وبعض العرب يُجري الغين والخاء مجرى القاف) (9) ، ويقول أيضاً : (منخل ومنغل فيخفي النون كما يخفيها مع حروف اللسان والفم) (10) ، وهي قراءة من القراءات العشر ، تُقرأُ بالإخفاء .

2- الهمزة التي بين - بين : الحــرف الثاني من الحروف الفرعية المستحسنة (الهمزة التي بين - بين) وهي الهمزة التي تنطق بين الهمزة وبين جنس ما قبلها تخفيفا ؛ لأنّ نطق الهمزة صحيحة ثقيلة في المخرج ولصعوبة نطقها عند بعض قبائل العرب يلجؤون إلى تخفيفها بين الهمزة وبين جنس ما قبلها من الحروف وهي التي سماها عالم العربية (سيبويه) بين - بين ، أيْ : نطقها من مخرجين ، مخرجها هي ، ومخرج الحرف الذي منه حركتها ، فإذا كانت مفتوحة نُطقت من مخرج بين الهمزة وبين الألف مثل : أأنت ، وإذا كانت مضمومة نُطقت من مخرج بين الهمزة والواو مثل : أؤنزل ، وإذا كانت الهمزة مكسورة نُطقت من مخرج بين الهمزة والياء مثل : أئنك ، ولها رسم قرآني خاص في المصحف ، ويتبين نطقها عند المجيدين من القراء فتظهر عند الاستماع .

يقول صاحب شرح المفصل : (الهمزة حرف خفـــيّ ؛ لأنه أدخل الحروف إلى الحلق) (11) ، وقد اشتهر عند بعض قبائل العرب تخفيفها أيضا بالإبدال ، وهو نوع من التهرّب من نطقها كما في قولك : الذئب - الذّيب ،والبئر- البير ، والرأس - الراس ...إلخ ، والذي اشتهر بتخفيفها هم أهل الحجاز (12) ، فقد نقل عن الإمام السيوطي قوله عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- ، قَالَ :" **مَا هَمَزَ رَسُـــولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وَلَا أَبُو بَكْرٍ، وَلَا عُمَرُ وَلَا الْخُلَفَاءُ،**" (13) ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت شاعر الرسول - صلى الله عليه وسلم - (14) :

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلّت هذيل بما سالت ولم تصِبِ (15)

فخفف نطــق الهمزة في الكلمتين بإبدالها ألفاً ، فبدلاً من سألت صارت سالت بموضعيها في البيت ، وقد نقل صاحب الشافية (16) قوله : (ثم اعلم أن الهمزة لما كانت أثقل الحروف في الحلق ولها نبرة كريهة تجري مجرى التهوّع ثقلت بذلك على

لسان المتلفظ بها ، فخففها قوم) (17) ولصعوبتها ، فقد اختلف القدامى والمحدثون في صفتها ، فالقدامى يرون أن الهمز صوت مجهور ، في حين أنّ المحدثين يرونها مهموسة (18) ، وهذا ما تؤكده التجارب المخبرية في ملاحظة الأوتار الصوتية وعدم تذبذبها ، وذهب فريق من المحدثين ومنهم (هيفنر) ومن معه أنّ صوت الهمزة لا هو بالمجهور ولا هو بالمهموس، ولذلك فإن العرب غيّرته وتصرفت فيه مالم تتصرّف في غيره ، فحققته تارة ، وأبدلته تارة ، وحذفته تارة ، وخففته تارة أخرى (19) ، وبالتالي فإنّ تخفيف الهمزة منتشرٌ في اللسان العربي ، وهو محاكاة لظاهرة صوتية لهجية في بعض قبائل العربية كقريش وغيرها ، فقد نقل الرضي عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : (**نزل القرءان بلسان قريش ، وليسو بأصحاب نبر ، ولولا أنّ جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ما همزنا**) (20) .

ثمّ إنّ المتأمّل في أحوال العرب عند نطقهم للهمزة يجـــد أنّ التحقيق والتخفيف لهجتان ظاهرتان حتى عند أهل الحجاز الذين اشتهروا بالتخفيف ، فقد حققوا مالم يحققه غيرهم مثل : النبيء والخطيئة ، والبريئة ....إلخ .

3 ـ ألف الإمـــــالة : هي الألف التي تمال إمالة شديدة كما ذكرها سيبويه (21) ، وهي التي تسمى ألف الترخيم أيضاً (22) لأن الترخيم هو تليين الصوت وانكساره ضدّ ألف التفخيم ، ولذلك يكون تعريف الإمالة أقرب كما عرّفها ابن السراج (23) بقوله : (معنى الإمالة أن تميل الألف نحو الياء والفتحة نحو الكسرة) (24) أو أن نقرّب صوت الألف من صوت الياء كما ذكره مكيّ بن أبي طالب في الكشف بقوله : (واعلم أنّ معنى الإمالة هو تقريب الألف نحو الياء ، والفتحة التي قبلها نحو الكسرة) (25) فما فائدة الإمالة في اللسان العربي ؟ إنّ اللغات تجنح إلى الخفّة والسهولة حتى تكون طيّعة على ألسنة أبنائها ، فيستعملها النّاطق بلغته دون تكلّف ، واللغة العربية تجنح إلى الخفّة والانسجام الصوتي والتقريب بين الأصوات المتباعدة ، يقول صاحب شرح المفصّل :(والغرض من الإمالة تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل) (26) ، ولا تلاحظ الإمالة إلا بالسّماع إمّا عند أصحاب الإمالة من اللهجات التي لازالت تلهج بها الشّعوب حتى الآن كالشّام خاصّة لبنان وما جاورها أو في ليبيا كأهل الشرق أو أقصى الغرب كأهل الزاوية والمناطق القريبة منها ، وإمّا عند المجيدين من القرّاء الذين يتقنون القراءات القرآنية بقراءاته المتواترة وهم قليل ؛ لأنّ القراءات المشهورة الآن هي قراءة حفص عن عاصم أو قراءة قالون عن نافع وهم من المقلّين في الإمالة، والمُميلون هم حمزة ، والكسائي ، وخلف العاشر، وأبو عمر البصري .

والقـــرّاء ، وعلماء التجويد أكثر تصنيفاً للإمالة ، فيقسمونها إلى إمالة كبرى وهي المرادة عند الإطلاق ، وتسمى أحياناً في كتب القراءات بالإضجاع والبطح ،وإمالة صغرى ،وتسمى بالتقليل (27) ، وإنّ المتتبّع لكتب النحو يجد أنّ أكثرها تنسب الفتح لأهل الحجاز ، وتنسب الإمالة لعامّة نجد من تميم ، وأسد ، وقيس ، وكلٌّ له سببه المقنع ، فمن نطق بالفتح فقد أتى بالكلام على أصله ، ولأنّ سليقته تلهج بالفتح فلا يرى ذلك تكلّفاً ، ومن أمال فيرى ذلك انسجام للصّوت ليعمل اللسان على وجه واحد ، فلا يتصعّد ، ثمّ يتسفّل ، ثمّ يتصعّد ، فيعدّ ذلك ثقلاً وتنافرا بين الأصوات ، ولو فتح لوجد صعوبة في النطق ، يقول ابن يعيش معللا لهم أو مستحسناً لمن أمال :(وكذلك في الإمالة قرّبوا الألف من الياء لأنّ الألف تطلب من الفم أ علاه ، والكسرة تطلب من الفم أسفله وأدناه فتنافرا ولمّا تنافرا أجنحت الفتحة نحو الكسرة والألف نحو الياء فصار الصوت بين بين فاعتدل الأمر بينهما وزال الاستثقال الحاصل بالتنافر) (28) ، والحقيقة أنّ الفتح والإمالة لهجتان فصيحتان من لهجات العرب ، ومن حاول حصر الإمالة في عامة نجد من قيس وتميم فقط فقد أخطأ لأنّ أهل الحجاز الذين ينسب إليهم الفتح يميلون في بعض المواضع يقول سيبويه : (ومما يميلون ألفه كل شيء كان من بنات الياء والواو مما هما فيه عين إذا كان أول فعلت مكسورا .....وهي لغة لبعض أهل الحجاز) (29) ، ثم يقول في موضع آخر : (وكثير من العرب ،وأهل الحجاز لا يميلون هذه الألف) (30) ، فكأنه ينفي عنهم الإمالة فالفتح والإمالة ؛ أي ألف الإمالة صوت فصيح ، ولفصاحته أيدته القراءات القرآنية ، ثمّ إن النحاة يستشهدون ببيت للدلالة على شيوع الإمالة في اللسان العربي هو قول هدبة بن خشرم (31)

عسى الله يغني بلاد ابن قادر بمنهمر جون الرباب سكوب

وقد رُوي بالفتح أيضاً يقول سيبويه : (واعلم أن الذين يقولون : هذا قارب يقولون: مررت بقادر ، ينصبون الألف) (32) ، وبالتالي فهو تنوع لصوت الألف فصيح .

4- الشـــــين التي كالجيم : هو صوت يقرب بين الدال والشين كما في قولك : أشدق أجدق فالشين مهموس رخو ، وبعده الدال مجهور شديد ، فقرّب بينهما بصوت الجيم ؛ لأنه يوافق الدال في الشدّة والجهر ، وهو صوت فرعيّ أصله من التسعة والعشرين ، ذكر ذلك الإمام سيبويه بقوله : (وتكون خمسة وثلاثين حرفا بحروف هنّ فروع ، وأصلها من التسعة والعشرين ، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار النون الخفيفة و.....الشين التي كالجيم) (33) ، وقد ذكر سيبويه أيضاً بأن الحرف الذي يضارع به حرف ليس من موضعه هو حرف الشين بقوله : (والجيم

أيضاً قد قربت فجعلت بمنزلة الشين كما في قولهم : الأجدر- الأشدر للتقريب بينهما)(34) ، وهي لهجة يلهج بها كثير من العرب ، وإنما فُعل ذلك تخفيفاً لا استثقالا.

5- **الصّاد التي تكون كالزاي** : ذكر صاحب شرح المفصل في تشبيه الصاد بالزّاي وهو ما يُعرف بالمضارعة قوله : (وأما المضارعة فأن تنحو بالصّاد نحو الزّاي فتصير حرفاً مخرجه بين مخرج الصاد ومخرج الزّاي ولم يبدلوها زاياً كالوجه الذي قبله محافظة على الإطباق لئلاّ يذهب لفظ الصاد بالكلية)(35) وهذا ليس بإبدال ، وإنما مضارعة للتقريب بينهما ، فقد ذكر النحاة بأنّ الصاد إذا وقعت ساكنة وبعدها الدال جاز فيها ثلاثة أوجه :

الوجـــــه الأول : أن تجعلها صاداً خالصة وهو الأصل ، والوجه الثاني : إبدالها زاياً خالصة والوجه الثالث : أن يضارع بها الزاي ، أي: يقرب منها صوت الزاي دون الإجحاف بصوت الصاد فيبقى تفخيمها ، فإذا تحركت الصاد لم يجز الإبدال والمضارعة يقول شارح المفصل : (وإن تحركت الصاد امتنع البدل) (36) لأنه قد فصل بينهما بفاصلٍ وهو الحركة ، فالحركة تكون بعد الحرف ، إلا ما سمع عن بعض العرب في نحو الصراط والمصادر؛ لأن الطاء كالدال ولذا ذكر في القراءات القرآنية إشمام الصاد زاياً في لفظ الصراط حيثما ذكر في القرآن الكريم لقارئ الكوفة خلف عن حمزة ، وهو ما سأتناوله تفصيلاً في المبحث القادم .

وقد قالت العرب قديماً (لم يحرم من فصْدَ له) والمراد من فصِدَ له أُسكنت الصاد تخفيفاً ، فصارت ضعيفة وجاورت الدال وهي مجهورة فقربت منها بمخرج الزاي، وكل ذلك من باب التقريب يقول الدكتور أحمد علم الدين الجندي: (ومن التقريب ما جاء من قول العرب (لم يحرم من فصد له) أصله فُصِد له ثمّ أسكنت العين ..... قرّبت منها بأن أُشمّت من لفظ الزاي المقاربة للدال في الجهر (37) قال الشاعر:

ودع ذا الهوى قبل القلى ترك ذي الهوى متين القوى خير من الصوم مزدري (38)

أي : بإبدالها زاياً خالصة ، وهو الوجه الثاني الذي أشرت إليه قبل قليل .

6 **- ألف التفخيـــــم (ألف الحجاز) :** يقول شارح المفصل : (وأما ألف " ألف التفخيم " فأن ينحى بها نحو الواو فكتبوا الصلاة والزكاة والحياة بالواو على هذه اللغة) (39) وهو نوع من الإمالة والتقريب ؛ أي : إمالة الفتح إلى الواو ، وهي لغة من لغات العرب ، وآثارها ممتدّة حتى عصرنا هذا في لهجات بعض دول الخليج كالكويت ، وسلطنة

عمان ، وغيرها ، وأهل التجويد من القراء أكثر تفصيلا وتدقيقاً في إدراك هذا الفتح المفخم الذي عدّه سيبويه وسماه ألف التفخيم ، حيث ذكر الداني في الموضّح بقوله : (والفتح على ضربين : فتح شديد وفتح متوسط ، والفتح الشديد : هو نهاية فتح القارئ لفيه بلفظ الحرف الذي يأتي بعده ألف ، ويسمّى- أيضاً - التفخيم والقرّاء يعدلون عنه ولا يستعملونه) (40) ، فوقفت كثيراً عند هذه الجملة وقلت : إذاً لماذا يفخّـــم الإمام ورش عن نافع لفظ الصلاة حيثما ورد في القرآن الكريم ، ثمّ إنّ نافعاً أحد القـــراء السبعة الذين اشتهرت عنهم القراءة ، وظلّ هذا التساؤل يراودني حتى اهتديت إلى تعليل ذكره الدكتـــور غانم قدّوري الحمد بقوله : (وقد يكون سيبويه حين ذكر هذه الألف إنما أراد بها ألفاً مفخّمة تفخيماً شديداً ، وأنها ليست الألف التي ذكرها في مقابل الإمالة) (41) ؛ أيْ ليست القراءة التي يقرأ الإمام ورش في لفظ الصلاة بدليل ذكره لألفاظ أُخرى مثل : الزكاة والحياة ، أمّا قراءة الإمام ورش عن نافع في لفظ الصّلاة فحقيقتها تغليظ اللام ؛ أي تفخيم اللام لأنّ قبلها حرفاً من حروف الاستعلاء ، وقد ذكر الإمام الشاطبي ذلك بقوله :

وغلّظ ورشٌ فتح لامٍ لصادها ــــــــــــــــــــــــ (42).

وليست أيٌّ ألفٍ كالزكاة والحياة بألف التفخيم كما ينطقه أهل الحجاز حتى الآن .

المبحث الثاني ـ الحروف المستحسنة في القراءات القرآنية :

قد ذكرت من قبل أنّ حروف العربيـــــة تسعة وعشرين حرفاً ، وزيد عليها ستة حروف وصفها سيبويه بالاستحسان في قراءة القرآن والأشعار ، وها أنذا أعرض لها في القراءات القرآنية .

1 ـ **النـــــون الخفيفة (الخفية)** : هو صوت النون عندما يجاور حرفاً من حروف الإخفاء ، وهو صوت لا يلاحظ إلا مشافهة من القراء ، وليس له رمز كتابي ، فقد اتفق القراء العشرة ورواتهم على قراءته بالإخفاء في كلّ موضع عندما تجاور النون الساكنة أو التنوين حروف الإخفاء ، وعددها خمسة عشر حرفاً مجموعة في قولهم في أوائل هذه الكلمات :

تلا ثمّ جاد درٌّ ذكا زاد سل شذا صفا ضاع طاب ظلّ في قرب كمّلا (43)

وقد ذكر ابن الجزري بأنّ الإخفاء هو حال بين الإظهار والإدغام (44) ، والسبب في ذلك هو قرب المخرج من مخرج الإدغام والغنّة التي مخرجها الخيشوم مثل هذه

الكلمات القرآنية : (كُنتُمْ ، مَن تَابَ ، جَنَّاتٍ تَجْرِي ، مِن ثَمَرَةٍ ، أَنجَيْنَا ، أَندَاداً ، مِن دَابّةٍ ، مِن ذَهَبٍ ، مِن زَوَالٍ ،صَعِيداً زَلَقًا ، مِن سُوءٍ ، غَفُورٌ شَكُورٌ ، أَن صَدُّوكُمْ ، مَنضُودٍ ، مِن ظَهِيرٍ.... إلخ) ، فمخرج النون الساكنة والتنوين مع حروف الإخفاء هو (الخيشوم) ، ولا عمَل للّسان في نطقها ، وهي التي قصدها سيبويه ـ والله أعلم ـ وليست النون الخفيفة التي تقابل نون التوكيد المشددة .

وعلة الإخفاء في النون والتنوين مع هذه الحروف التي ذكرتها آنفاً هو اجتماع مخرجين ، مخرج طرف اللسان ، والإخفاء الذي مخرجه الخيشوم ، واستعمال مخرج واحد أخفّ عليهم من مخرجين ؛ لأن اللسان العربي يجنح إلى الخفة في الاستعمال ، ولذا ذكر سيبويه ذلك بقوله : (فلما وصلوا إلى أن يكون لها مخرج من غير الفم ، يعني من الخياشيم كان أخفّ عليهم ألاّ يستعملوا ألسنتهم إلا مرة واحدة) (45) ، وزد على ذلك فقد انفرد من القراء العشرة الإمام أبوجعفر بقراءة الإخفاء عندما تجاور النون الساكنة والتنوين حرفي الخاء والعين (46) وجعل حكمهما كحكم حروف الإخفاء، وذلك مثل هذه الكلمات : (مِن خَيْرٍ ، مِن خَوْفٍ ، مِن غِلٍّ إلخ) وهنّ من حروف الإظهار ، ولكنه عاملهما معاملة حروف الإخفاء ، وعلة ذلك قرب مخرج الخاء والعين من حروف الفم ، ولأنّ القراءة سنّة متّبعة وليست قياساً يُلتزم فيها جانب الرواية فقد روي عن بعض أهل الأداء استثناء بعض الكلمات مثل : (فَسَيُنْغِظُونَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا ، الْمُنْخَنِقَةُ) مع أنها نفس الحروف (47) ، ومع وجود هذا الصوت في القراءات القرآنية موثقاً

بأعلى درجات التوثيـــق فإنني أرى أنّ هذا الصوت لا يقلّ فصاحة عن الحروف التسعة والعشرين ، صحيح أنّ هذا الصوت لا يغيّر من معنى الكلمة ويبقى تنوعا لصوت النون ، وهو تنوع للهجات العرب في نطق صوت النون ، ولو لم يكن فصيحاً لما نُطِق به في القراءات القرآنية.

2ـ الهمـــزة التي بين ـ بين : وهو ما يعرف بالتسهيل بين الهمزة وحركة ما قبلها كنـــوع من التخفيف والهروب من نطقها محققة وهو مذهب كثير من القـــراء ، وقد اختلف فيها القراء على النحو التالي :

أ ــ منهم من يحقق الهمزتين إذا اجتمعتا في كلمتين أو في كلمة واحدة ، ويسمّون أصحاب التحقيق ، وهم الكوفيون ؛ أي حمزة والكسائي ، وكذلك وافقهم ابن عامر ورَوْحٌ .

ب ــ منهم من يُحقق الأولى ويسهل الهمزة الثانية بين ـ بين أيْ بين الهمزة وحركتها وهم : نافع ، وابن كثير ، وأبوعمرو البصري ، وأبوجعفر ، ورويس (48) وهو ما يهمنا الآن في نطق صوت الهمزة بين ـ بين ؛ ولأنّ صوت الهمزة المحققة ثقيل مستثقل

، فهناك عدد من القراء يلجؤون إلى تخفيفه أحياناً بنطقه بين ـ بين ، وأحياناً يبدلونها حرف مدٍّ كورش، وأحياناً ينقلونها إلى حركة الساكن قبلها كورش وحمزة حال الوقف (49) يقول صاحب الشاطبية :

إذا سكنت فاءً من الفعل همزة فورش يريها حرف مدٍّ مبدّلا

ويقول صاحب الشاطبية ـ أيضاً ـ :

وحرّك لورشٍ كلّ ساكن صحيح بشكل الهمز واحذفه مسهلاً (50)

ولذا فإنّ صوت الهمزة التي تنطق بين ـ بين قرأ به عدد من القراء ، فهو فصيح من كلام العرب ولو لم يكن فصيحاً لما نُطق به في القراءات القرآنية ، وهو تنوّع لصوت الهمزة المحققة مادام لم يغيّر من المعنى شيئاً ، يقول الإمام ابن خالويه في الحجّة : (فالحجّة لمن قرأ بالهمز والتعويض : أنه كره الجمع بين همزتين متواليتين ، فخفف الثانية ، وعوض عنها مدّة ..... وكل ذلك من فصيح كلام العرب) (51)

3ـ الألف الممالة : الإمالة ظاهرة لهجية عند العرب ، وهي من فصيح كلام العرب ؛ ولذا نطق بها في القراءات القرآنية ، والقراء مختلفون فمنهم من اشتهر بالإمالة الكبرى وهم حمزة والكسائي وخلف العاشر، ووافقهم الإمام أبوعمرو البصري في ذوات الراء (52) وهي التي أشار إليها ابن الجزري بالإمالة الشديدة بقوله : (فهي بهذا الاعتبار تنقسم أيضاً إلى قسمين : إمالة شديدة وإمالة متوسطة ، وكلاهما جائز في القراءة جارٍ في لغة العرب) (53) .

ومنهم المقلّ ؛ أي : لم يكثر من الإمالة في القـــــرآن الكريم كعاصم وابن عامر ، فقد روي حفص عن عاصم الإمالة في كلمة واحدة في القرآن الكريم كله ، وهي (**مُجريها**) في سورة هود .

واختلف عن ورش عن نافع المدني الإمالة المتوسطة في ذوات الراء من طريق الأزرق (54) وهناك من القراء الآخرين الذين اشتهروا بالفتح خالفوا أصولهم ، وقرأوا بالإمالة في بعض ذوات الياء في إحدى عشرة كلمة وهي : (بَلَى ، رَمَى ، مُزْجَاةٍ ، أَنَّى ، يَلْقَاهُ ، أَعْمَى ، سِوَى ، سُدًى ، ءَانَاءِ ، رَأَى ، نَآءَ) (55) ، ويشـــار بالرمز الكتابي * تحت الحرف الممال في الرسم القرآني مثل (والضُّحَى) ، وقد ذكر ابن الجزري فائدة الإمالة بقوله : (فهي سهولة اللفظ وذلك أنّ اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة والانحدار أخفُّ على اللسان من الارتفاع ، فلهذا أمال من أمال) (56) ، ودليل الإمالة للقراء قول الشاطبـــي ـ رحمه الله ـ :

وحمزة منهم والكسائي بعده أمالا ذوات الياء حيث تأصّــلا (57)

ويقول لورش :

وذو الرا لورش بين بين وفي أراكهم وذوات اليا له الخلف جمّلا(58).

4 ـ الشين التي كالجيم : هو الصوت الوحيد الذي لم تؤيده القراءات القرآنية ، فلم يقرأ به قارئ ، وقد ذكر سيبويه

بأنّ الحرف الذي يُضارع به حرفٌ ليس من موضعه هو الشين ، ويلهج به كثير من العرب .

5 ـ الصاد التي تكون كالزّاي : يُنطَق كالزّاي المفخّمة ، وهو ليس بإبدالٍ ، وإنما مضارعة ومقاربة لصوت الصاد بالزّاي وهو صوت ليس بغريب عن العرب بدليل وجوده في القراءات القرآنية ، وكذلك نطقه في اللهجات العربية الحديثة في مصر ، والخليج يقول المصري : (يا زالم) يريد (يا ظالم) وهو نفس النطق في الصراط (الزراط) ؛ صحيح أنّ هناك فرق بين الصاد والظاء ولكن أقصد صوت الزاي المفخّم ليس بغريب عن أسماعنا ولهجاتنا العربية .

وقد اشتهر من القرّاء الإمام خلف عن حمزة ، حيث أشمّ الصاد زاياً في لفظ (الصراط) حيثما ورد ذكره في القرآن الكريم معرّفاً ومنكّراً ، وأنّ زميله(خلاّد) لأنّ شيخهما (حمزة الزيّات) قد أشمّ الصاد زاياً في الموضع الأوّل من القرآن الكريم ، ويؤيّد ذلك ما ذكره الإمام الشاطبي في لاميّته بقوله : .....

والصاد زاياً أشمّها * لدى** خلفٍ **واشمم لخلاّد لوّلا** (59)

وقد ذكـــر صاحب الكشّاف مكي بن أبي طالب علّة ذلك بقولـــه : (وحجة من قرأ بين الصاد والزّاي وهو خلف عن حمزة أنه لمّا رأى الصاد فيها مخالفة للطاء في الجهر ، لأن الصاد حرف مهموس والطاء حرف مجهور اشمّ الصاد لفظ الزّاي ، للجهر الذي فيها ، فصار قبل الطاء حرف يشابهها في الإطباق وفي الجهر اللذين هما من صفة الطاء ، وحسن ذلك ، لأنّ الزاي من مخرج السين ومؤاخية لها في الصفير) (60) ، ويقول الإمام ابن خلويه في الحجة : (والحجة لمن أشمّ الزاي أنها تؤاخي السين في الصفير وتؤاخي الطاء في الجهر) (61) .

6- **ألف التفخيم :** وهو نطق الألف ممالة نحو الواو ، وقد فصلت القول فيه آنفاً ، وهي التي تسمى ألف الحجاز والقراء يعدِلون عن هذا ولا يستعملونه ، لكنها لهجة من لهجات

العرب وما زالت مستعملة حتى وقتنا هذا في لهجة البحرين وما جاورها ، غير أنّ قارئ القرآن ورش عن نافع يلزم تفخيم الألف لتغليظ اللام قبلها في لفظ (الصلاة) و(الطلاق) إذا جاورت حرفاً من حروف الاستعلاء ، واتفق جميع القراء على تفخيم أو تغليظ اللام إذا كان قبلها فتحٌ أو ضمٌّ مثل : (قالوا اللهمّ) ، وترقق إذا وقعت قبل كسرٍ مثل : (بسمِ اللّهِ) .

ونجد أنّ القراء متفقون جميعاً على تفخيم الألف إذا جاء قبلها حرف من حروف الاستعلاء في مثل : (طاب ، غالب ، طائف ، قال ، ظالم ....إلخ) إذ التفخيم هو ارتفاع مؤخر اللسان نحو الحنك الأعلى ، وهذا ما يحدث عند نطق أصوات الاستعلاء ، ولذا نعتبر أن الألف مفخمة مما اكتسبته من صفة حرف الاستعلاء قبلها ، فتكون نفس الألف المفخمة التي عدها علماء اللغة من الحروف المستحسنة ، وبالتالي لا تقِلُّ فصاحة عن الألف المفتوحة أو الألف الممالة نحو الياء بدليل وجودها في القراءات القرآنية .

الخاتمـــــــــة :

من خلال ما اطلعت عليه في كتب اللغة والنحو والقـــراءات القرآنية والتعليل لنطق هذه الأصوات الفرعية المستحسنة التي ذكرها عالم اللغة (سيبويه) في كتابه ومن جاء بعده من العلماء وجدت أنّ بعض هذه الأصوات لا يقلّ فصاحة وانتشاراً من الحروف الأصلية (التسعة والعشرين) بدليل وجودها في القراءات القرآنية ؛ صحيح أنّ هذه الأصوات الفرعية لا تمثل معنى مستقلا ، إنما هي تنوّع لتلك الأصوات وطريقة للتلفظ بها ، يَلهج بها عدد غير قليل من القبائل العربية الأخرى ، وما تنزلت القراءات القرآنية إلاّ للتيسير على هذه الأمة ، وبالتالي لا نرى غرابة ، ولا نرى استثقالا عند النطق بهذه الأصوات ، ولا ينبغي أن نفرّق بينها في الفصاحة وبخاصة إذا ما علمنا أنّ هذه القراءات التي تنسب لقراء معيّنين كقراءة الإمام حمزة ، والإمام ورش عن نافع ، وغيرهما هي قراءات توقيفية تنزلت من لدن حكيم عليم ، واشتهرت بأسمائهم لنبوغهم فيها وتمكنهم منها ، وليس لهم أن يقرءوا بماشاءوا ؛ بل بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

النتائـــــج :

مـــن خلال هذا البحث خلصت إلى نتائج أحسب أنها تفيد الباحث والقارئ على حدٍّ سواء ، وتفتح باب التذوق في جمال لهجاتنا العربية المتنوعة التي جاءت القراءات القرآنية مؤيدة لها منها:

1 ـ الحـــروف المستحسنة هي أصوات عربيـــة ينطق بها عدد غير قليل من القبائل العربية ولانتشارها وفصاحتها تنزلت بها القـــراءات القرآنية تيسيراً وتخفيفاً على عدد من خلقه ، فلا يجـــدون غضاضة ولا ثقلاً عندما تلهج ألسنتهم بتـــلاوة آياته ، وفي هذا التنـــوع آية من آياته ـ سبحانه جلّ في علاه ـ قال – تعالـــى ـ : **(وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ ءَلاَيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ)** (الـــرّوم).

2 ـ الحـــروف المستحسنة موزّعـــة على القراءات القـــرآنية ، منها ما اتفق عليه عدد من القراء كالهمز المسهل بين بين ، والنـــون الخفية ، وألف الإمالة ، وألف التفخيم ، والصّاد التي تكون كالـــزاي .

3 ـ هناك صوت واحـد من الحروف المستحسنة ، وهو صـــوت الشّين التي كالجيـــم لم تؤيده القراءات القرآنية وإن كان يُلهج به عند العرب ، وكتب اللغة والنحو مليئة بتسجيله عندهم كسيبويه في الكتاب ومن جاء بعده .

4 ـ كتب القراءات زاخرة بالحديث عن هذه الأصوات ، ولا يشيرون إليها بالمستحسنة ، بل يشـــيرون إليها على أنها لغات لبعض العرب ، وأكثر تعليلاتهم تدور حول الخفة في الاستعمال والتيسير عن الأمة .

5 ـ القـــراءات سنة متبعة يلزم القبول بها ، فقد سـخّر الله لها جهابذة من العلماء قاموا على حفظها والتدقيق فبها ، فألفوا فيها الكتب والقصائد ليسهل مراجعتها وحفظها من الضـــياع والأصوات الدخيلة على العربيـــة كقصيدة الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ في القـراءات الســـبع وغيرها .....

6 ـ علم القـــراءات القرآنية سجل حافظ لعدد من الموضوعات الصوتية، وقد حفظ لنا ثروة زاخرة ننهل منها ما نشاء عندما ننكبُّ عليها بالبحث والقراءة .

التوصيات:

1 ـ تشجيع الباحثين على طرق الموضوعات الصوتية في القراءات القرآنية والنهل منها وإظهار ما فيها من جماليات لغتنا وتنوعها ليبرُز ما فيها من إعجاز يجعل هذه اللغة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

2 ـ افتتاح عدد من المنارات القرآنية التي تختصّ بعلم القراءات القرآنية التي تظهر لنا جانبا من لغتنا الخفيّ فيبقى مألوفاً في ءاذاننا و ألسنتنا ولا نخطئ من يلهج بها ، أو نلمز من ينطق بها وننشر جانبا من الوعي في مجتمعاتنا بهذا التنوع .

3 ـ نشـــــــر القـــراءات القرآنية في الإذاعات المختلفة المرئيـــــــــة والمسموعة ، وغيرهما فيها تخفيف للأمة ليتعلمونها ويقرؤونها بما يوافق لهجاتهم المحلية شرط أن يتقنونها من أهل الاختصاص ، فالرواية لها ضوابط وإتقان .

الهوامـــــــــــش:

1ـ الإمام سيبويه هو : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر إمام النحو وحجة العرب الفارسي الأصل، طلب الفقه والحديث ، ثم أقبل على العربية ، فبرع فيها وساد أهل عصره ، وألف كتابه الكبير (الكتاب)الذي مات ولم يضع له عنواناً ، وتوفي سنة 180 هـ . من كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي ، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوطي وحقق هذا الجزء محمد نعيم العرقسوسي ، ج/8 صفحة 352 ، الطبعة / الثانية ، عام 1982 .

2 ـ الكتاب لسيبويه ج/4 ص/ 431 ، تحقيق وشرح عبد السلام هـــارون ، ط/ الثانية عام 1982 نشر / مكتبة الخانجي بالقاهرة .

3 ـ الكتاب لسيبويه ج/4 ص /432.

4 ـ المصدر السابق والصفحة نفسها .

5 ـ اللهجات العربية في التراث للدكتـور عبد العزيز الجندي ج/1 ص/ 17 ط/ دار العربية للكتاب .

6 ـ الكتاب لسيبويه ج/4 ص/ 433.

7 ـ الكتاب لسيبويه ج/4 ص /454.

8 ـ المدخل إلى علم أصوات العربية للدكتور غانم قدور، ص/ 73 ، ط/ الأولى.

9ـ الكتاب لسيبويه ج/4 ص/ 454 .

10 ـ المصدر السابق ج/4 ص /451 .

11 ـ شرح المفصل لابن يعيش ج/9 ص /73 ،ط/ علم الكتب ـ بيروت .

12 ـ المصدر السابق ج/9 ص/107 .

13 ـ رواه الحاكم في المستدرك ، باب من قراءات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ 2/ 251 ، رقم الحديث : 2907 ، وذكره السيوطي في الإتقان في علوم القرآن، ص/ 209 ،ط/ الأولى عام 2008م، نشر مؤسسة الرسالة ، دمشق ـ سوريا .

14 ـ هو : حسان بن ثابت بن المنذر شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (أجب عني اللهم أيده بروح القدس) توفي سنة 50 هجرية ، ينظر كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لأبي حجر العسقلاني ج/1 ص273، طبعة ـ كلكتا ، عام 1853.

15ـ هذا البيت من شواهد شرح المفصل لابن يعيش ج/9 ص/114 ، طبعة / عالم الكتب .

16 ـ ابن الحاجب هو الشيخ الإمام العلامة المقرئ الأصولي الفقيه النحوي أبوعمرو عثمان بن عمر أبوبكر بن يونس الكردي المالكي صاحب التصانيف ، ولد سنة 570هـ كان أبوه حاجباً للأمير عزالدين الصلاحي ، وتوفي سنة 646هـ ، ينظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج/23ص/264 ـ 265 ، حقق هذا الجزء الدكتور بشار عواد معروف والدكتور مح السرحان طبعة / 1985 .

17 ـ شرح الشافية لابن الحاجب ج/3ص/31.

18 ـ ينظر كتاب دراســـة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر ص/346 ، طبعة / عالم الكتب عام 1997م.

19 ـ ينظر كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج/1 ص/295 ، مصدر سابق .

20 ـ ينظر شرح الشافية لابن الحاجب ج/3ص/ 32، مرجع سابق .
21 ـ ينظر الكتاب لسيبويه ج/4 ص/ 432 ، مصدر سابق .
22 ـ ينظر كتاب شرح المفصل لابن يعيش ج/10 ص/127 ، مصدر سابق .
23 ـ السرّاج هو: إمام النحو محمد بن السري البغدادي النحوي صاحب المبرّد ، وانتهى إليه علم اللسان كان ينطق الرّاء غينًا ، له كتبٌ رائعة ككتاب شرح سيبويه ، واحتجاج القراء والاشتقاق ، وغيرها ، توفّي في شهر ذي الحجة عام 316هـ / من كتاب سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ج/14 ص/484 ، حقق هذا الجزء شعيب الأرنؤوطي وأكرم البوشي ، الطبعة /الأولى / عام 1983م .
24 ـ الأصـــــول في النحو لابن السراج تحقيق عبد الحسين القتلى ج/3 ص/ 160 ، ط/ الثالثة عام 1988م .
25 ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع لمكي بن أبي طالب ، تحقيق عبد الرحيم الطرهوني ج/1ص/226 ،طبعة / عام 2007م ، دار الحديث ـ القاهرة .
26 ـ شرح المفصل لابن يعيش ج/9 ص/ 54 ، مصدر سابق .
27 ـ ينظر كتاب النشر لابن الجزري ج/2 ص/ 24 ، مصدر سابق .
28 ـ شرح المفصل لابن يعيش ج/9 ص/ 55 ، مصدر سابق .
29 ـ الكتاب لسيبويه ج/4 ص/ 120 ، مصدر سابق .
30 ـ المصدر السابق ج/4 ص/121.
31 ـ هذا البيت ينسب لهدبة بن خشرم ، وهو من شواهد الكتاب ، يُنظر الكتاب لسيبويه ج/4ص/139 ، وينظر كتاب شرح المفصل لابن يعيش ج/9 ص/62 .
32 ـ الكتاب لسيبويه ج/4 ص/ 138 ، مصدر سابق .
33 ـ المصدر السابق ج/4 ص/ 432 .
34 ـ المصدر السابق ج/4 ص/479 .
35 ـ شرح المفصل لابن يعيش ج/10 ص/ 53 ، مصدر سابق .
36 ـ المصدر السابق ج/10 ص / 53 .
37 ـ اللهجات العربية في التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندي ج/1 ص / 293 ، الطبعة الجديدة عام 1983م ، دار العربية للكتاب .
38 ـ لم ينسب هذا البيت لقائل ، والشاهد في هذا البيت (مزدري) ، وأصلها (مصدري) بإبدالها زاياً .
39 ـ شرح المفصل لابن يعيش ج/10 ص/ 127 ، مصدر سابق .
40 ـ الموضح للإمام الداني ص/23 .
41 ـ المدخل إلى علم الأصوات العربية للدكتور غانم قدوري الحمد ص / 167 ، الطبعة : الأولى ، عام 2004م .
42 ـ سراج القارئ المبتدئ لابن القاصح ص/ 75 ، طبعة / دار الفكر ، عام 2002م .
43 ـ المصدر السابق ص/ 61 .
44 ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج/2 ص/ 20 ، مصدر سابق .
45 ـ الكتاب لسيبويه ج/ 4 ص/ 454 ، وينظر كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب ج/1 ص/ 224 ، تحقيق عبد الرحيم الطرهوني ، طبعة 2007 م .
46 ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج/2 ص/ 22 ، مصدر سابق .
47 ـ المصدر السابق ج/2 ص/ 18 .
48 ـ ينظر كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج/1 ص/ 288 ، مصدر سابق .

49 ـ ينظر كتاب سراج القارئ المبتدئ لابن القاصح ص/ 46 ، مصدر سابق .
50 ـ ينظر المصدر السابق ص/ 48 .
51 ـ الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم ص/ 66 ، طبعة 2007 م.
52 ـ ينظر كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج/2 ص/ 28 ــ 31 ، مصدر سابق.
53 ـ المصدر السابق ج/2 ص/ 24 .
54 ـ ينظر كتاب النشر لابن الجزري ج/2 ص/ 32 ، مصدر سابق .
55 ـ من أراد الاستزادة فعليه بكتاب النشر لابن الجزري ج/2 ص/33 .
56 ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج/2 ص/ 28 ، مصدر سابق .
57 ـ سراج القارئ المبتدئ لابن القاصـــح ص/ 64 ، مصدر سابق .
58 ـ المصدر السابق ص/68 .
59 ـ المصدر السابق ص/ 22 .
60 ـ الكشف لمكي بن أبي طالب ج/1 ص/ 123 ، مصدر سابق .
61 ـ الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص/63 ، مصدر سابق .